

المحاضرة الأولى: أنواع المعارف وتطورها

إن المعرفة البشرية ليست كتلة صلبة أو ثابتة، بل هي سيرورة تطويرية تعكس نمو القدرة البشرية على تنظيم التجربة وتحويلها إلى رموز ومعان قابلة للتداول. يتفق الباحثون على أن هذا التطور مر بمراحل نوعية تتميز في أدواتها وأهدافها ودرجة تجريبها. تطورت المعرفة البشرية عبر مراحل مختلفة، بدءًا من الأشكال البدائية للمعرفة الحسية وصولًا إلى التعقيدات المعرفية للعلم الحديث. يمكن تصنيف هذه الأنواع وتتبع تطورها من خلال مساهمات العديد من المفكرين.

أولاً: ما المعرفة؟

وفقًا لفريدريك معتوق، "لم يقع الاتفاق بعد على تحديد موحد لمفهوم المعرفة، بيد أن قاسمها المشترك عند المفكرين، أنها تتكون من مجموعة الأحكام والأفكار والتصورات التي تحكم أذهان مجموعة بشرية تعيش في إطار اقتصادي وسياسي محدد". (معتوق، 1982، ص ص 8-9) إن المعرفة هي "كل ما يحصله الإنسان (بعقله أو بحسه أو بحدسه) من معان أو مفاهيم أو تصورات أو أفكار متعددة عما يعنيه مما يحيط به، ليشبع حاجاته الفطرية أو ليحقق رغبته في السيطرة على العالم المحيط به". (السيد، 2011، ص ص)

تحديد تعريف موحد ودقيق للمعرفة "ليس بالأمر السهل، فقد تشير المفردة إلى "عملية المعرفة" بوصفها إدراكاً -حسيًا أو عقليًا- وتبصرًا، وتأملاً وفهماً، وتمييزاً، وإحاطة، وسبراً لأغوار الحقيقة، وارتداداً للمجهول، أو بحثاً عن علل وأسباب، أو تحققاً لفروض وتصورات، وما إلى ذلك..." (السيد، 2011، ص ص)

يعرف تيموثي وليامسون المعرفة من منظور ابستمولوجي بأنها "اعتقاد مبرر". (وليامسون، 2023، ص 279) ويقول ستير من منظور سوسيولوجي: "إن المعرفة هي القدرة على العمل الاجتماعي، وإمكانية وضع شيء ما على قدميه". (Cited in Thomass, 2003, p31) لذلك، تعد المعرفة توليفة من الأفكار والقواعد والإجراءات والتجارب والخبرات في مجالات معينة. يراها آخرون بأنها "مجموعة المعاني والمعتقدات والمفاهيم والتصورات الفكرية التي يشكلها الإنسان نتيجة لمحاولاته المستمرة لفهم الظواهر والأشياء، إنها الإجابة عن السؤال: كيف نعرف ما نعرفه؟". (السيد، 2011، ص 4)

إن الإجابة عن أسئلة مثل من يملك المعرفة؟ ومن لديه القدرة على الوصول إلى المعرفة؟ تشكل الأساس للتسلسل الهرمي الاجتماعي، وتفسر التفاوت الاجتماعي، وتؤثر في الطريقة التي يتم بها ممارسة السلطة، فالمعرفة قوة، وبما أن الحكمة تختلف من شخص لآخر، فإن ميزة استخدام المعرفة ستكون في أيدي من يمتلك الحكمة الفائقة، لا يسعنا إلا أن نقول إن أولئك الذي يسيطرون على المعرفة سيسيطرون أيضاً على الحكمة". (Kumar, 2012, p5) أما العلم فهو "نوع من ألوان المعرفة، ونتائج أفضل وأكثر مصداقية من غيره من الوسائل الهادفة على فهم منطقي للعالم، وهو بذلك ظاهرة اجتماعية متعددة الجوانب، حيث يظهر في أماكن متفرقة وفي أشكال كثيرة". (إريكسون، 2014، ص ص 12-13)

ثانياً: المعرفة – من التصور الحسي إلى البناء الاجتماعي للحقيقة

غالباً، ما تطرح أسئلة من قبيل: هل المعرفة عقلية، أم حسية، أم عقائدية؟، والآن يجري الحديث عن المعرفة العلمية بوصفها معرفة الراهن. هل المعرفة فردية أم اجتماعية؟ نظرية (مجردة) أم تطبيقية؟ صريحة أم ضمنية، أم هما معاً؟ في علم اجتماع المعرفة، تصنف المعارف إلى أنواع متعددة بناءً على مصادرها وطبيعتها. في هذا المحور سنركز أكثر على التصنيف الشائع الذي يحدد أنواع المعرفة الإنسانية، بناءً على مراحل تطورها تاريخياً.

1. المعرفة الحسية (Sensory Knowledge)

تمثل المستوى الأنثروبولوجي الأول للمعرفة. هي معرفة غير معلنة، تنتقل عبر الممارسة والتقليد لا عبر التنظير. في إطار سوسيولوجيا المعرفة، تمثل هذه المعرفة "ما يعرفه الجميع" دون حاجة إلى برهنة، وقد يتخذ هذا الشكل شكل "المعرفة العامة" المستوحاة من المعيش اليومي، أو المعرفة الاجتماعية الأولية. "تبدأ المعرفة الاجتماعية الأولية للفرد من انتمائه إلى جماعة اجتماعية مهما كان شكلها وطبيعتها، أي عضوية الفرد في المجتمع، أو من خلال التماثل أو المحاكاة، أي مطابقة تفكير الفرد وسلوكه مع الجماعة التي ينتمي إليها". (خليل العمر، 2007، ص 113)

هذه المعرفة هي موضوع التحليل في الأنثروبولوجيا المعرفية، وهي ما أسماه كليفورد غيرترز Clifford Geertz بالوصف الكثيف، حيث تفهم الثقافة باعتبارها نسيجاً من المعاني المشتركة. دافيد هيوم (David Hume) يرى أن المعرفة تبدأ بالانطباعات الحسية التي تتحول إلى أفكار. (Hume, 1748/2007)

من منظور سوسيولوجي وتطوري، تعد المعرفة الحسية استجابة فطرية تهدف إلى الحفاظ على السلامة الجسدية والتكيف مع البيئة المباشرة. ورغم بساطتها، فإنها تمثل المادة الخام التي يعالجها العقل البشري،

حيث يقوم الدماغ باختيار وتبسيط هذه المعطيات الحسية لبناء أنماط معرفية قابلة للفهم. إن القصور في المعرفة الحسية يكمن في ذاتيتها وعدم قدرتها على التنبؤ الدقيق أو تقديم تفسيرات شمولية، مما استدعى ارتقاء العقل نحو مستويات أكثر تجريداً.

المعرفة الحسية تشكّل "المخزون المعرفي اليومي" الذي يشغل داخله الفاعلون الاجتماعيون، وهو ما سيحلله لاحقاً ألفرد شوتز بوصفه "المعرفة المتداولة في الحياة اليومية". (Schutz, 1967) يمكن أن يتخذ هذا النوع من المعرفة، مصطلحاً مرادفاً نوعاً ما، يطلق عليه بـ "المعرفة العامية" (Common-Sense Knowledge)

دراسات راهنة في "التحليل السوسولوجي للمعرفة الحسية" أظهرت أن الحواس ليست مجرد أدوات «طبيعية» بل تشكل اجتماعياً؛ وأن المعرفة الحسية تكتسب كمهارة من خلال التمرن في حقول اجتماعية (الطب، الرياضة، الحرف...؛) هذه المعرفة غالباً ما تكون «ضمنية» وصعبة اللفظ، لكنها تنظم اجتماعي دقيق للانتباه والإحساس والتقييم. (Jakubowska, 2019) هذا يبين استمرار خط تطور من المعرفة الحسية إلى العلمية، مروراً بمستويات وسيطة من المهارة والخبرة والروتين المؤسسي.

2. المعرفة الأسطورية والدينية

تنتقل المعرفة هنا من المحسوس إلى المقدس. تعد "الأسطورة من دون منازع أساس التفكير الشرقي القديم، فهي شكل من أشكال: العلم البدائي الذي يفسر الأصول السببية لأحداث الطبيعة ونظم البشر"، لقد: "اعتقد الإنسان أن الإجابات السحرية كافية في تفسيرها لمعنى الحياة وغايتها وحتمية نهايتها". (معيزي، 2017، ص 302)

درس دوركايم في "الأشكال الأولية للحياة الدينية" (الطوطم) كيف أن التصنيفات العقلية (كالزمان والمكان والجنس) ليست فطرية، بل مشتقة من التنظيم الاجتماعي للقبيلة. لم يكن "الله" بالنسبة للسكان الأصليين مجرد كيان ميتافيزيقي، بل كان انعكاساً مقدساً لقوة الجماعة ذاتها. دوركايم يرى أن الدين نظام من المعتقدات والممارسات المرتبطة بالمقدس، يعبر عن البنية الاجتماعية. (Durkheim, 1912/1995)

3. المعرفة الفلسفية والتأملية

تعد المعرفة الفلسفية (Philosophical Knowledge) مرحلة وسيطة متقدمة، حيث ينتقل التركيز من "ما تراه الحواس" إلى "ما يدركه العقل" عبر التأمل الفكري والمنطقي. تعرف المعرفة الفلسفية بأنها "حصيلة

نشاط فكري فردي قائم على التأمل في موضوعات تتجاوز حدود العالم المادي أو الواقع الامبريقي، ومن ثم تعد من أشكال المعرفة الفردية الذاتية في مقابل المعرفة العلمية الموضوعية". (السيد، 2011، ص 6)

تسعى الفلسفة للبحث عن العلل البعيدة للظواهر والماهيات الجوهرية للأشياء، وتطرح تساؤلات وجودية حول أصل الكون، والموت، والميتافيزيقا. حيث "اختلفت عن المعرفة العلمية في أنها لم تقتصر على بحث الأمور الواقعية التي يمكن معرفتها، بل تعدت حدود الواقع والعالم الطبيعي، وسبحت إلى عالم ما بعد الطبيعة لتبحث في الوجود كله". (السيد، 2011، ص 10) تاريخياً، كانت المعرفة الفلسفية هي اللبنة الأولى لتشكيل الحضارة العلمية، حيث وفرت الأطر المنطقية والمفاهيمية والمنطقية التي استندت إليها العلوم لاحقاً. الفلسفة هنا لا تكتفي بالظواهر المادية، بل تبني أنساقاً فكرية كلية تحاول تفسير الوجود الإنساني في شموليته.

4. المعرفة العلمية التجريبية

في الغالب كانت المعرفة في القديم، معرفة تتمحور حول الوصف، أما المعرفة العلمية فتركزت على التفسير. تعد المعرفة العلمية "تلك المعرفة التي تعتمد على الملاحظة المنظمة للظواهر ومحاولة تفسيرها، بالكشف عن القوانين التي تحكمها والتنبؤ بمستقبلها". (السيد، 2011، ص 12)

المعرفة العلمية تمثل النمط المهيمن في العصر الحديث. لكن سوسيولوجيا المعرفة لا تتعامل مع العلم بوصفه قطيعة مطلقة مع الأيديولوجيا، بل بوصفه ممارسة اجتماعية. يرى باشلار أن العقل العلمي هو الذي يشكل لنا معرفة علمية، "فهو يمنعنا من تكوين رأي حول قضايا لا نفهمها. بالنسبة إلى العقل العلمي تعد كل معرفة جواباً عن مسألة، فإذا لم تكن ثمة مسألة لا يمكن أن يكون هناك معرفة علمية، لا شيء ينطلق بداهة، لا شيء معطى، كل شيء مبني". (باشلار، 1982، ص 14) هذا المبدأ الذي ينطلق منه باشلار وحده بورديو من بعده، يفند على سبيل المثال التحديد المفهومي لعلم الاجتماع -الذي يتخذ كحقيقة- بوصفه يدرس الظواهر الاجتماعية/المجتمع دراسة علمية، بدل تحديده بأنه يعيد بناء الظاهرة الاجتماعية باستخدام عدة مفاهيمية.

يقدم توماس كوهن (Thomas Kuhn) نموذجية "البراديجم" ليظهر أن الثورات العلمية ليست تراكمًا معرفيًا محايدًا، بل تحولات في رؤية الجماعة العلمية للعالم. أوغست كونت كان يرى أن الفكر الإنساني يمر بثلاث مراحل: لاهوتية، ميتافيزيقية، ووضعية. تمثل المعرفة العلمية (Scientific Knowledge) ذروة

التطور المعرفي، حيث تقوم على الملاحظة المنظمة، ووضع الفروض، والتحقق منها عبر التجربة (Experimentation) وصولاً إلى القوانين العامة. وتتميز هذه المعرفة بخصائص جوهرية تشمل:

1. الموضوعية: استبعاد الذاتية والميول الشخصية لصالح الحقائق القابلة للقياس والتحقق.
2. المنهجية: اتباع خطوات دقيقة ومنظمة في البحث والاستكشاف، كالملاحظة والتجريب.
3. القدرة التنبؤية: استخدام القوانين المستخلصة لتوقع مسار الظواهر في المستقبل.
4. قابلية التحقق أو التكذيب.
5. مؤسسة مؤسساتياً.

6. الطابع الامبريقي: "فالعلم يتخذ من العالم الواقعي موضوعاً له، ولا يتجاوزه مثل الفلسفة". (السيد، 2011، ص 13)

7. الطابع التراكمي: "المعرفة العلمية هي تراث عقلي واسع يشكّل ويطور ويراكم تاريخياً". (السيد، 2011، ص 15)

علاوة على التصنيف السابق للمعرفة الإنسانية، حدد عالم الاجتماع الفرنسي أوجست كونت في قانون المراحل الثلاث، تطور المعرفة الإنسانية، وهذا ما سنشير إليه بشكل موجز.

تطور المعرفة: من اللاهوتية إلى الوضعية (أوجست كونت)

قدم الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي أوجست كونت (Auguste Comte) نظرية المراحل الثلاث لتطور الفكر البشري والمجتمعات. وفقاً لكونت، يمر الفكر البشري والمجتمعات بثلاث مراحل رئيسية:

1. المرحلة اللاهوتية: (Theological Stage) في هذه المرحلة، يفسر البشر الظواهر الطبيعية والاجتماعية من خلال قوى خارقة للطبيعة وكائنات إلهية. حيث "كان يوجه فيها ذهن الإنسان أبحاثه نحو باطنية الكائنات والعلل الأولى والنهائية للطبيعة". (ميشال، 2021، ص 31) بمعنى "تمط التفكير الذي يفسر الظواهر بالرجوع إلى القوى الماورائية الخارقة للطبيعة، حيث ظل الإنسان البدائي حائراً أمام الظواهر الطبيعية متسائلاً عن مصدرها، فظل عقله قاصراً عن فهمها" (إبراهيم، 2011، ص 31) فعزى الأحداث إلى إرادة الآلهة أو الأرواح. هذه المرحلة بدورها تنقسم إلى ثلاث مراحل فرعية: الروحانية، تعدد الآلهة، وتوحيد الآلهة.

2. المرحلة الميتافيزيقية: (Metaphysical Stage) تمثل هذه المرحلة فترة انتقالية، حيث تفسر الظواهر من خلال قوى مجردة أو كيانات ميتافيزيقية بدلاً من الآلهة المحددة. يتم التركيز على المفاهيم المجردة مثل الطبيعة أو الجوهر، بدلاً من الإرادة الإلهية. "فكل ما كان يشغله هو معرفة الأسباب الأولى للظواهر التي تحدث ضمن مجال إدراكه". (إبراهيم، 2011، ص 31)

3. المرحلة الوضعية: (Positive Stage) هي المرحلة النهائية والأكثر تطوراً، توصف "بمرحلة النضج والاكتمال في التفكير الإنساني، فحين أدرك العقل البشري استحالة الوصول إلى حقائق مطلقة عدل عن البحث عن أصل الأشياء، واكتفى بالتوجه نحو اكتشاف القوانين التي تسير عليها الظواهر المختلفة". (إبراهيم، 2011، ص 31) فقد تخلص البشر عن التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية، وركزوا على الملاحظة التجريبية، التجريب، والبحث عن القوانين التي تحكم الظواهر. يعتبر كونت أن علم الاجتماع هو العلم الأسمى في هذه المرحلة. لأنه علم وضعي، و"الوضعية هي علم الحقائق (Science of Facts) أي المعطيات الامبريقية". (السيد، 2011، ص 140) والوضعية هنا كمنهج شكله أوغست كونت "ينتقد الميتافيزيقا، ولا يعترف بحقائق إلا في سياق المعارف المنبثقة من العلم". (ميشال، 2021، ص 29)